العرب
الثلاثاء 2021/10/12
السنة 44 العدد 12207

عالم النشر والكتاب في الجزائر في مفارقة بين الجوع المعرفي والجوع البيولوجي

ناشرون جزائريون يحذرون من تراكمات تدمّر صناعة الكتب

الإقبال على الكتب ليس مؤشرا على نجاح صناعة النشر

تمثل إقامة الدورة الخامسة والعشرين من صالون الجزائر الدولي للكتاب مطلع يناير المقبل فرصة للخروج بقطاع النشر من أزماته الكبيرة. وبالرغم من التحفّظات التي أبداها عدد من الناشرين بخصوص توقيت تنظيم هذه التظاهرة، إلا أنّ الأغلبية العظمى من الناشرين عبّروا عن سعادتهم بعودة الصالون لكونه يُعيد تحريك المشهد الثقافي الذي أصابه الركود بفعل تداعيات أزمة كورونا التي أدّت إلى توقّف صناعة النشر وإفلاس عدد من الناشرين. لكن تبقى رهانات قطاع النشر في الجزائر هاجسا مؤرقا وأزماته أكبر من تظاهرة معرض الكتاب.

صابر بليدي
كاتب جزائري

الجزائر – يعيش قطاع النشر والكتاب في الجزائر على وقع سلسلة من الأزمات المتتابعة تدفع به إلى الاندثار، ففي ظل توجه الاستهلاك إلى المأكل والملبس، تدحرجت قيمة الغذاء العقلي والفكري إلى مراتب دنيا بسبب إكراهات تراجع القدرة الشرائية. فقد أرغمت الفرد على الاختيار بين ملء البطون على حساب العقول، وما بقي يكاد الإغلاق الذي فرضته جائحة كورونا أن يقضي على سوق الكتاب، ومنه على أكبر فاعل في السلسلة وهو دور النشر.

ولم تظهر أي استراتيجية للحكومة الجزائرية في التعاطي مع القطاع منذ بداية تنفيذ إجراءات الغلق بسبب وباء كورونا. ففي ظل هشاشة شبكة التوزيع ورداءة خدمة البيع الإلكتروني، تكبّدت دور النشر والمكتبات خسائر ضخمة بعد دخول القرار عامه الثاني، بالموازاة مع إلغاء المواسم المحلية والوطنية لبيع الكتاب.

الأزمة والكساد

عكس بعض الدول التي استثنت القطاع من الغلق، وأبقت على نشاط المكتبات ومراكز التوثيق والأرشيف، مع التشديد على تطبيق إجراءات التباعد، فضلا عن إنشاء منصات لإنقاذ الناشطين في القطاع من الإفلاس، بعدما انفردت شركات إلكترونية كبرى على سوق الإنترنت.

وأمام انغماس الفرد الجزائري في كيفيات تحصيل ضروريات الحياة اليومية، بسبب الندرة والغلاء الفاحش للحليب والماء والرواتب والحرائق وأخيرا الخبز، تراجعت أهمية الكتاب كثيرا، فصار من قبيل الترف والبرجوازية، لتجد بذلك المكتبات ودور النشر والموظفين والكتاب تحت طائلة أزمة خانقة.

ورغم أن الكتاب في الجزائر يعتبر نشاطا موسميا، عادة ما كان ينطلق في شهر أكتوبر من كل عام، ويكون المعرض الدولي للكتاب الدولي، بمثابة الإعلان عن بداية الموسم الثقافي، حيث يعتبر الفضاء الأول الذي يلتقي فيه القارئ والكاتب والناشر والموزع والبائع، فإن خللا واضحا كان يبرز من طبعة إلى أخرى، وهو أن عدد الزوار ولا المبيعات تعتبر مؤشرا على تقدير ثقافة الشارع. فغالبا ما كانت الكتب شبه المدرسية وتفسير الأحلام وحور الجنة وغيرها هي التي تلقى صدى واسعا لدى مرتادي المعرض، بينما تترتب الاختصاصات والاهتمامات الأخرى في الخلف.

وفيما كانت الأنظار والمتابعين تتحدث عن النوعية وتحسين صناعة الكتاب وتطويرها، فاجأ قرار الغلق المطبق منذ عامين الفاعلين في القطاع، فبدأ النشاط منذ شهر مارس 2020، في تراجع تدريجي إلى أن دخل في أزمة خانقة، لاسيما مع توقف الفعاليات الثقافية والمعارض المحلية، وحتى الصالون الدولي للكتاب، الذي تقرر تأخير موعده إلى يناير وسط جدل واسع بين الناشرين والقراء وحتى الكتاب والمثقفين.

ويرى داود فيلتس مدير دار نشر "فليتس"، أن "جذور الأزمة وكساد الكتاب قديمة وليست وليدة ظهور الجائحة، والبداية كانت منذ خمس سنوات بالضبط حين حذفت ميزانية اقتناء الكتب من ميزانيات المؤسسات التربوية، والتي كانت تدر دخلا معتبرا لدور النشر والمكتبات، ثم إن ظهور الجائحة ومعالجتها بالإغلاق دون مراعاة التداعيات، أدخلا دور النشر في دوامات متعددة خاصة مع عزوف القارئ وتراجع القدرة الشرائية".

المعرض الدولي للكتاب كان إعلانا عن بداية الموسم الثقافي لكنه يخفي خللا واضحا في نوعية الكتب

وخلال الأشهر الماضية، ومع تخفيف قيود الحجر، نظمت المنظمة الوطنية للناشرين معرضا وطنيا دام عشرة أيام وكان بادرة حسنة خففت أعباء الكساد عن دور النشر، لكن الأمر لم يسر بذات الوتيرة بالنسبة إلى دور النشر الفتية فدار "اكوزيوم أفولاي" الموجودة في أقصى الشرق بمدينة سوق أهراس، وعلى لسان صاحبتها المهندسة خولة حواسنية، اعتبرتها "سنة الركود بامتياز".

ولم يكن المعرض في مستوى تطلعات دور النشر الناشئة، فدور النشر الكبيرة والعريقة كانت الأوفر حظا، مع تراجع الإقبال للزوار وتقلص الطلب، وحتى عامل الجغرافيا له دوره في تفعيل حركية التوزيع والتواجد بمختلف التظاهرات الثقافية بسبب مركزة الفعاليات واحتكار العاصمة والمدن الكبيرة لها، حسب مديرة دار "اكوزيوم أفولاي" خولة حواسنية.

واقع مليء بالمفارقات

يعتقد رفيق طيبي مدير مؤسسة "خيال" للنشر والترجمة، أن "رواد السوشيال ميديا يتوجهون إلى المحتوى السطحي والمبتذل وتجاهل كل ما يحفز على القراءة، وأهمية الكتاب، مما ساهم بشكل الكبير في تراجع الكتاب والمقروئية، وقد كان موسما صعبا على دور النشر باعتباره موسم الحفاظ على التواجد والاستمرارية بحقل النشر الشائك، والذي انتهت فيه دور النشر الصغيرة والعديد من المكتبات".

وفي نفس المقاربة يذهب كمال قرور مدير "منشورات الوطن" ومكتبة "الفنك"، فيعتبره موسما صعبا وحاسما بالتزامن مع الوضع الصحي العام الذي فرضته الجائحة، وصارت مهمّة فريق دار النشر هو "ضمان البقاء وعدم التراجع، أما بالنسبة إلى المكتبة فمردودها أفضل قليلا من دار النشر، وهذا لاعتمادها على الترويج المستمر للكتب وتقديم تسهيلات للقراء بإيصال الكتب إلى منازلهم مع التخفيضات المستمرة لكسب المزيد من القرّاء، وتوصيل الكتب بالبريد كانت طريقة ناجعة لتخفيف من الكساد والخسارة".

وهو ما انتهجته الكثير من المكتبات مثل مكتبة السوق وهي أقدم مكتبات مدينة شرشال بمحافظة تيبازة، والتي يرى مالكها أمين سعدون، بأن "فترة الإغلاق لم تؤد إلى خسائر فادحة كون الناس كانت تبحث عن طريقة لتمضية الوقت بعد أن فرض عليها البقاء في المنزل".

الوضع المتردي نتيجة حتمية لعدم وجود سياسات واضحة وخطط ميدانية لإنقاذ صناعة الكتاب من الركود والكساد

وهناك من بدأ مشواره في تجارة الكتب خلال هذه الفترة وازدهرت من خلال منصات السوشيال ميديا مثل أمين من مدينة المدية الذي أسس صفحة على موقع فيسبوك منذ سنة تقريبا خصصها لبيع الكتب القديمة والنادرة بأسعار جد مغرية، مكّنته من اكتساب شريحة واسعة من الزبائن.

وتجلت المفارقة بين الجوع المعرفي والجوع البيولوجي خلال فترات تخفيف قيود الإغلاق، وكانت العديد من الدول تحرص على العودة القوية إلى قطاع النشر وتفاعل القارئ مع المنتوج الجديد، استمر اهتمام الفرد الجزائري في تكديس الطحين والزيت خوفا من الجوع، في ظل المضاربة وارتفاع أسعار المواد الاستهلاكية، ووجدت تفاعلا إعلاميا كبيرا، بينما لفظت العشرات من دور النشر والمكتبات أنفاسها وانتهت خلال فترة الإغلاق، وتحول معظمها إلى بيع الأدوات المدرسية، أو تحولت مباشرة إلي محلات فاست فود ومطاعم.

ويرى مهتمون بعالم النشر أن الوضع الحالي هو نتيجة حتمية لعدم وجود سياسات واضحة وخطط ميدانية لإنقاذ صناعة الكتاب من الركود والكساد، ليس وليد الجائحة بل يمتد إلى تراكمات سابقة، والى عدم الاهتمام الجاد والفعلي بالكتاب من طرف السلطات المختصة، باعتباره منتجا فكريا غير ربحي.

ويرى داود فليتس أنه "رغم سياسات الوزارة السابقة التي أتت في ظاهرها داعمة ومنقذة للوضع المتردي الذي آلت إليه صناعة الكتاب، لكنها لم تخرج إلى الشارع والجماهير، وبقيت محصورة في اجتماعات ولقاءات صورية مع دعم قلة من دور النشر علي حساب دور نشر صغيرة تعمل في الممكن والمستحيل من أجل ألا تشهر إفلاسها أو تعلن هزيمتها".

«التباس الألوان» قصص تأمّلية في عالم بلا طمأنينة

الدار البيضاء – يجعل القاص أيمن قشوشي من أثر العالم وما يجري فيه من تفاصيل ظلالا لنصوص مجموعته "التباس الألوان" التي تكشف عن حوار بين ما يراه السارد وبين ما انفلت في الزمن ولا يجد له منطقا.

ويتحكم هذا اللامنطق في البناء القصصي في المجموعة، الصادرة أخيرا عن دار الفاصلة للنشر، وإن بتفاوت، لكنه يقدم في الآن نفسه شغفا متمرّدا بالحكي.

وتمثل "التباس الألوان" الخيط الناظم لقصص المجموعة، وهي انعكاسٌ لما يخال السارد أنه يقبض عليه بين الشخوص والفضاءات والزمن والتناصات والنصوص المؤطّرة والمرجعيات القرائية.

وخلال ذلك يعايش المتلقي سلسلة لا تنتهي من قلق السارد، وأيضا من "التزام الكاتب" في أن تظل قصصه أفقا ممكنا للقراءة ولتأويل لحظات "اللاطمأنينة" التي باتت تشكل "هوية العالم" اليوم.

ويقول الكاتب المغربي محمد برادة في تقديمه للمجموعة، إن قشوشي "يضعنا، من خلال طريقة السرد والأسلوب المشحون بالاستعارات والكثافة الشعرية، أمام عتبة قصصية لا تتوخى حَبْك الواقع في مشاهد قصصية مكتملة بقدر ما ترنو إلى صوغ خطاب سردي، تأمّلي، ينبش قشرة الواقع والمرئي ليدسّ أسئلة وإيحاءات يدثرها قلق وجودي طافح بحيوية الشباب".

يُذكر أن أيمن قشوشي يشتغل في مجال الطب النفسي، الأمر الذي أهّله للغوص في أعماق شخصياته القصصية، وهذه المجموعة هي الثانية له بعد "كلكن عذراوات" (2010).

«أثرٌ من ذيل حصان» قصائد تشبه الصدى

عمان – تتضمّن مجموعة "أثرٌ من ذيل حصان" للشاعر العراقي المقيم في الأردن عبود الجابري، قصائد بعناوين محمّلة بالدلالات تشي بمحتوى المجموعة ووجهاتها الرمزية والمجازية، على غرار "أسلاك شائكة"، "مكابدات رجل فضفاض"، "في سيرة الرجل الداكن"، "متاع الرحلة الأخيرة، فيثاغورس"، و"محاكاة سقراط".

وفي القصيدة التي تحمل المجموعة اسمها، يختار الجابري طريقة تقطيع للقصيدة تجعلها تتقاطع مع الكتابة النثرية من حيث الشكل، ومن حيث انهماكها بسردية وصفية قصصية.

ومن الأمثلة على ذلك يقول الشاعر "في الموسيقى أثرٌ من ذيل حصانٍ أصبح وترا، في الموسيقى ندبة من وجه عازف أخطأ الطريق إلى الحنين وأومأ إلى الراقصة أن تتمايل على جرح المسافر، كان المايسترو يخطّط لسفر بعيد في أنين الناي، فأحضر الإبل والهوادج، ومضى بنسائه إلى الصحراء، حيث لا كهرباء ولا بشر ولا تماثيل".

ويُجري الشاعر في القصيدة تناوبية بين أسلوب التقطيع السرديّ، ونظيره الشعري المتوزعة مقاطعه على أسطر الكتابة بما يتواءم مع موسيقى النص من جهة، ومع مشروعيته الشعرية من جهة ثانية.

ويقول الجابري "يموتُ الصّدى/ في بيوتٍ تصدعتْ جدرانُها/ ذلك يعني/ أنّ من يصرخُ/ شقيقُ الصّامت في دفاترِ الحجارة/ وأن الحناجرَ/ ليست سوى مدافنَ للصّفيح".

ويقول الشاعر العراقي باسم فرات متحدثا عن الشاعر "تمتاز ثقافة الجابري بأنها تراثية – حداثوية، وقاعدته التراثية التي منحت شعره قوة ومتانة لغوية كانت سلبيتها آنية، وهي تأخير نتاجه أن يلحق بالآخرين ممن هم من عمره، ولكن كان المستقبل له وعليهم، أي أنه تجاوز نفسه كثيرا بينما تراجع أغلب رفاقه، هؤلاء الذين بشروا بموهبة جيدة في الثمانينات ومطلع التسعينات، راحوا يتراجعون مع تجاوزهم الثلاثين بسنوات".

ويضيف "ليس الشاعر مَن يكتب نصوصا جيّدة وهو في بداياته، حسب الثناء والمدائح التي يتلقاها، لأن الاعتزاز بشاب في مقتبل العمر يطغى على حقيقة الثناء ويفرغه غالبا من محتواه النقدي، ولكن الحفر عميقا في التجربة الشعرية والمواصلة وبناء هرم شعريّ هو ما يستحق الثناء".

ويتابع فرات "لم يكن القول المأثور عن ت.س. إليوت "الشاعر بعد سن الأربعين" كلاما عابرا واعتباطيّا، بل لأن نسبة كبيرة ممن يكتبون الشعر يتساقطون إبداعيّا بعد سن الثلاثين، ولا يتجاوز نفسه بعد سن الأربعين إلا قلة القلة منهم، وهذا ما يمنح عبود الجابري ميزة استحقاق الثناء والدعوة إلى الاحتفاء بتجربته الشعرية".

سيرة على إيقاع وتر من ذيل حصان (لوحة للفنانة خزيمة علواني)